علاقة القرآن الكريم باللُّغة والأدب

د. بابكر خالد عبد الواحد (★)

مقدمة:

الحمد لله الكريم المنان، ذي الطّول والفضل والإحسان، الذي هدانا للإيمان، وفضل ديننا على سائر الأديان، وأكرمنا ببعثة خير الأنام محمد بن عبد الله المؤيد بالقرآن المعجزة المستمرة على تعاقب الأزمان . اللّهم صلّي وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدّين.

وبعد ،

فلم يمر بالعربية حدث أعظم من الإسلام ونزول القرآن على محمد ﷺ فقد صيّر هذا الحدث العربية لغة مرغوباً فيها ، لا لنفوذها السياسي، ولا لسبقها الحضاري، وإنَّما لمكانتها الدّينية، إذ تسامى أهل البلاد المفتوحة إلى درس العربية، والعناية بها، من أجل تحقيق العبادة وتلاوة القرآن وفهم النّصوص الشَّرعية.

وقد صار إتقان العربية مدعاة لتفضيل القاريء، كما صارت الرَّغبة في فهم القرآن دافعًا لحفظ لغة العرب، وشعرها، وأمثالها، وكلامها وسائر علومها.

وسيوضح البحث العلاقة والتّرابط بين القرآن الكريم واللّغة العربية وآدابها، مع العلم بأن الأخوة والتّرابط الوثيق بين القرآن واللّغة العربية أوسع من أن

(★) أستاذ الأدب والنقد وعميد كلية اللغة العربية بجامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية .

يحصيها مثل هذا البحث . ويكفي العربية فخراً بأن نزل القرآن الكريم بها وحفظت بحفظه ، فقال جلَّ في علاه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [2] كما سيوضح جهود علماء العربية وعنايتهم بها خدمة للقرآن الكريم، ويشير البحث إلى خطورة الدّعوة إلى فصل العربية عن القرآن الكريم وعلومه ، وخطورة التّقليل من شأن القرآن في بقاء العربية وخلودها.

أهمية الموضوع :

تتمثل أهمية الموضوع في أنّه يوضح تلازم علوم القرآن وعلوم العربية وتآخيهما، حتى إنَّه ليعسر فصل أحدهما عن الآخر. وتكمن أهميتة كذلك في أنَّه يوضح عناية علماء المسلين قديماً وحديثاً باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم.

أهداف البحث:

تحتاج المكتبات العربية والإسلامية لمثل هذه الدراسات التي تؤكد الرَّابطة بين حفظ القرآن الكريم وتعليم اللّغة العربية وآدابها. وللبحث في هذا المجال أهداف كثيرة ومهمة منها:

١. توضيح أثر القرآن الكريم في اللغة والأدب.
٢. عناية المسلمين بالبلاغة والشَّعر خدمة للقرآن الكريم.
٣. كشف مخططات أعداء الإسلام في حربهم على القرآن الكريم ولغته .

([1]) الحجر الآية(٩).

([2]) يوسف الآية (٢)

٤. العمل على أن يكون هذا البحث ثمرة علمية وجماعاً للدراسات التي سبقته .

٥. إفادة الباحث من بناء هذا البحث باطلاعه على مصادر ومراجع كثيرة كتبت في هذا المجال.

منهج البحث :

وطبيعة البحث تجعل الباحث يستخدم (المنهج الوصفي التّحليلي).

هيكل البحث :

قُسِّم هذا البحث إلى أربعة مباحث ، تناول الأول منها فضل القرآن الكريم والإسلام على اللّغة والأدب. والثّاني جهود علماء العربية في خدمة القرآن الكريم. بينما تحدث المبحث الثّالث في مطلبين عن عناية المسلمين باللّغة والأدب خدمة للقرآن الكريم. أما المبحث الرّابع فكان تحت عنوان: أعداء الإسلام والحرب على القرآن واللّغة.

الخاتمة: واحتوت على النَّتائج والتَّوصيات.

المبحث الأول
فضل القرآن والإسلام على اللّغة والأدب

للقرآن الكريم فضل وآثار على اللّغة العربية، لا تُحصى ولا تُعد، صفاء لأسلوبها وتخليداً لها.وتدفقاً لمعانيها ؛ لأنَّ اللُّغة العربية كانت بالقرآن وللقرآن وبحياته حياتها . ومن أهم الفضائل والآثار : أنّ القرآن الكريم جعل تعليم اللّغة العربية وتعلمها من أصل انتماء المسلم للإسلام، ومن أصل ارتباطه بالقرآن ، فإنَّ التَّعليم هنا مؤسس على نهج القرآن ولغته وأسلوبه . ومن آثاره على العربية إثراؤها بالدِّراسات الصَّوتية بحروف العربية ساكنة ومتحركة ، فقد درس علماء التجويد من أجل ترتيل القرآن، صفات الحروف ومخارجها.

ومن آثاره الجليلة على العربية : أنَّه ظل دافعاً قوياً لظهور العلوم العربية المختلفة، وظل منبعاً لها بالشَّاهد والمثال- كما تتمثل آثاره البالغة على اللُّغة والأدب في خلودها وتجمعها حول نص واحد ، يمثل قمة هذه اللغة وصورتها المشتركة. [١]

ومن آثاره الجليلة رفع مستوى الأداء في اللُّغة إلى المثال الرَّاقي ، والبيان الواضح، والتعبير المشرق ، بفضل تأثر الكتّاب والأدباء بأساليب القرآن الكريم. [٢]

ومن آثار القرآن على اللّغة والأدب أنَّه حوّل العربية إلى لغة ذات دين سماوي

([1]) الأدب العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي- أ.د حسن بشير صديق – ط الأولى ،٢٠٠٧ الدار السودانية للكتب – الخرطوم ص٢١ .

([2]) المصدر نفسه ، ص٢٢ .

باهر، وبذلك أحلَّ فيها معاني لم تكن تعرفها من قبله ولا كانت تعرف العبارة عنها مثل (الفرقان والكفر والإيمان والإشراك ، النَّفاق – الصَّوم – الصَّلاة – الزَّكاة – التَّيمم – الرَّكوع – السَّجود ...الخ) وأنَّه أثرى المفردات العربية بكلمات جديدة نقلها من معناها اللغوي الأصيل إلى معنى لغويّ إسلامي جديد ، وبهذا يتسع استخدامها ، وظهورها في العبارات والأساليب .

ومن أفضاله وأثاره أنّه جمع العرب على لهجة قريش وحقاً كانت هذه اللّهجة تسود القبائل الشّمالية في الجاهلية، غير أنَّ هذه السّيادة لم تكن تامة، فقد كان الشّعراء هم الذين يستخدمونها غالباً، أمّا قبائلهم فكانت تلوك لهجات تختلف عن اللّهجة القرشيّة قليلاً أو كثيراً، حسب قربها من مكة أو بعدها، فعمل القرآن على تقريب ما بين هذه اللّهجات من فروق ، واستكمال السّيادة للّهجة القرشيّة ؛ إذ كان العرب يتلونه آناء اللّيل وأطراف النّهار، وأخذت هذه اللّهجة تعم بين القبائل الجنوبية متغلغلة في الأنحاء الدّاخلية التي كانت – لا تزال – تتكلم الحميرية . ولما فتحت الفتوح ومُصِّرت الأمصار أخذت لهجتها تسود في مشارق الأرض ومغاربها ؛ إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كلِّ مسلم. وحث الإسلام على حفظه وترتيله، قال تعالى﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾[1] وبذلك تحوَّل المسلمون إلى حفظة للقرآن، يتلوه كبيرهم وصغيرهم ، حتى من سكنوا منهم الصَّحارى البعيدة ورؤوس الجبال. [2]

([1]) سورة المزمل. الآية(٤).

([2]) تاريخ الأدب العربى – العصر الإسلامي د.شوقي ضيف – الطبعة الأولى – دار المعارف ص(٣١).

ومن غير شك أتاح هذا الحفظ للهجة قريش لا أن تنتشر في العالم الإسلامي فحسب ، بل أن تحفظ أيضا وتظل على مر العصور جديدة غضه لا تبلى مع الزّمان ، وأيضا فإنّها اكتسحت ما لقيت من لغات ، إذ اتخذتها شعوب لا حصر لها لسانها ، فأصبح اللّسان العربيُّ من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي، فكلُّ من عاشوا في هذه الأنحاء تكلموا العربيّة القرشيّة ؛ إذ حلّت من ألسنتهم محل لغاتهم الأولى وأصبحوا عرباً يعبرون بالعربية عن مشاعرهم وعقولهم ، وكل ذلك بفضل القرآن الكريم، فهو الذي حفظ العربية من الضَّياع ، ونشرها في أقطار الأرض ، لغة حية خالدة.

ومن آثاره أنَّه هذّب اللّغة من الحوشيّة ومن اللّفظ الغريب فأقامها في هذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة، فالقرآن اختط أسلوباً جزلاً، له رونق وطلاوة، مع وضوح القصد ، والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه ، وهو أسلوب ليس فيه زوائد ولا فضول ، فاللّفظ على قدر المعنى وكأنَّما رسم له رسماً . وهو لفظ لا يرتفع عن الإفهام ولاعن القلوب ، بل يقرب منها حتى يلمس الشَّقاف . ومما لاشك فيه أنَّ القرآن هو الذي ابتدع هذا الأسلوب المحكم ، بل هذا الأسلوب السّهل الممتنع، الذي تلتذ به الآذان حين تستمع له ، والأفواه حين تنطق به ، والقلوب حين تصغي إليه، هذا الأسلوب الذي يميز عربيتا، والذي استطاع أن يفتح القلوب حين فتح العرب الأمصار ، فإذا أهلها مشدوهون ، وإذا هم يهجرون لغاتهم المختلفة إلى لغته الصّافية الشّفافة. [1]

([1]) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامي / ص٣٢.

وهذا الأسلوب البالغ الروعة ، الذي ليس له سابقة ولا لاحقه في العربية ، هو الذي أدى إلى إسلام الخليفة الثّاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه . روى ابن هشام أنَّ عمرَ عندما علم بإسلام أخته وختنه ذهب إليهما وهو يرتجف من الغضب ، وعندما وصل إليهما وجدهما يقرآن في صحيفة فيها آي من القرآن. فقال :لأخته أعطني هذه الصّحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟ وكان عمرٌ -كاتباً - فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي فحلف لها بآلهته ليردها إليها إذا قرأها ، فقالت له : يا أخي إنك نجس على شركك ، وأنّه لا يمسه إلا المطهرون، فقام فاغتسل فأعطته الصّحيفة وفيها ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [1] فقرأها ، فلما قرأ صدرًا منها قال : ما أحسن هذا الكلام وما أكرمه. [2]

وذهب عمر لرسول الله ﷺ تحت هذا التّأثير البياني لا ليقتله ولكن ليعلن إسلامه.

وقصة الوليد بن المغيرة التي موجزها أن رسول الله ﷺ كان يصلي بالمسجد، والوليد بن المغيرة قريب منه ، فلما فطن النّبي ﷺ لقرب الوليد أعاد القراءة ، فانطلق الوليد يقول"... والله إنَّ لقوله الذي يقول لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنَّه ليعلو ولا يعلى عليه..." [3]

وقصة ثالثة يرويها الأصمعي قائلاً :" أقبلت من جامع البصرة فطلع عليَّ

([1]) سورة طه الآية (١-٢)

([2]) سيرة ابن هشام ت٢١٣ – ط الأولى ١٤٠٨-١٩٨٧م – (دار الريان للتراث بالقاهرة ج١ /ص٣٦٦ وما بعدها)

([3]) القصة أوردها ابن كثير والقرطبي وغيرهما عند تفسير الآيات (١١ – ٢٦) من سورة المدثر.

أعرابيٌّ على قعود له فقال : ممن الرجل ؟ قلت من بني أصمع ، قال : من أينَ أقبلت؟ قلت من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : اتل عليَّ فتلوت (الذَّاريات) فلما بلغت قوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [1]قال حسبك : فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى .

قال الأصمعي فلما حججت مع الرّشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّ فسلم عليَّ واستقرأ السورة فلما بلغت الآية ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[٢] صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا، فقرأت ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾[٣] قال : فصاح وقال يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه [٤].

إنّ أسرار القرآن البيانية التي بهرت عمر – رضي الله عنه ، والوليد بن المغيرة والأعرابيّ بهرت كثيرين غيرهم ، وارتفعت بلهجات القبائل العربية إلى اللّغة المشتركة بلغة القرآن فقد دخلت الأمة العربية بهذه اللّغة المشتركة ميدان العلوم والآداب على نطاق واسع ساهم في خدمة العربية وحفظها ، ولولا القرآن لأصاب

([1]) سورة الذاريات الآية (٢٢)

([2]) سورة الذاريات الآية (٢٢)

([3]) سورة الذاريات الآية (٢٣)

([4]) القصة أوردها القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) عند تفسير الآية .

العربية ما أصاب اللّغات الأخرى كالحميرية والفرعونية ونحوهما .

وهذا الأسلوب الرائع هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره فعلى هديه أخذ الخطباء والكتّاب والشّعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات في مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلي عن مغزاها مع الرّصانة والحلاوة .

وكان العرب ، ولا يزالون ، يحفظونه ، فهو معجمهم اللّغوي الأدبي الذي ساروا على هداه ، مهما اختلفت أنظارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم ، يقول الجاحظ " وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آي من القرآن ، فإنَّ ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرّقة وسلس الموقع"[1] ، ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه وينهلون من نبعه الغزير ما يقوّم ألسنتهم ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلّف أو تعمّل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد .

أما أسلوب القرآن الكريم فنسيج وحده ، "فهو من اللّغة العربية ألفاظ'' وتراكيب ولكنّه يعلوها بياناً وفصاحة وبلاغة ، فهو أنموذج كامل المعاني وفى أسلوب القرآن تتجلى القوة والوضوح والجمال " [2] وهو كما قال الرّافعي : "قد صفَّى اللُّغة من أكدارها ، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها ، فجاء بها من ماء الجمال أملأ من السّحاب ، وفى طراءة الخلق أجمل من الشّباب ، ثم هو بما تناول بها

([1]) الجاحظ : البيان والتبيين : باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء.

([1]) احمد بدوى – أسس النقد الأدبي عند العرب ص٦١٢ .

من المعاني التي أبرزها في جلال الإعجاز ، وصورها بالحقيقه وأنطقها بالمجاز ، فقد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه ؛ لأنَّه جلّاها على التّاريخ كلِّه ، لا على جيل العرب بخاصة ولهذا بهتوا حتى لم يستبينوا ، أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود"[1] .

وللقرآن والإسلام أثر في اللُّغة العربية عظيم ، بل هو أعظم مؤثر فيها وإليه ترجع نشأة علوم اللّغة العربية من نحو وصرف ولغة ومعاجم ، وبلاغة وأدب ، وكان دافعاً لأهل الإسلام من عرب وغيرهم ليتباروا ويتسابقوا في تعليم اللُّغة العربية ، وإجادتها والتّفاصح في استعمالها ، والّتسامي إلى لغة القرآن الكريم ومحاكاة بيانه ، بل إنَّ نقل العربية لتكون عالميَّة حية ، لا تهم العربيُّ وحده ، بل تهم كل مسلم أيّاً كان عرقه .

وختاماً نقول إنّه لولا الإسلام لم يكن هناك عربية كما نرى أو لبقيت العربية لغة فئة معزولة عن العالم ، تعيش في صحرائها ، يزهد فيها العالم ، ويرغب عنها إلى غيرها ، غير أنَّ الإسلام نقل العربية إلى بؤرة الاهتمام العالمي ، وجعل لها الصدّارة ، اهتماماً ، وتعلماً ، يطلبها العربيُّ وغيره ، ويغار عليها كل مصلٍّ ؛ وذلك لأنَّها تحلُّ في قلب كل مسلم في أعلى مكان منه ، وهى أجّل وأكبر لديه من كلِّ لسان وكل لغة.

([1]) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ،ط٤ ،ج ٧٤/٢

المبحث الثاني
جهود علماء العربية في خدمة القرآن الكريم

دخل النّاس في الإسلام وانقادوا له راغبين أو خاضعين ، فتعلموا لسانه ، ورأوا أنَّه لا يتم لهم دين إلاّ بلغته ، فبادروا إلى خدمتها ، والعناية بها ، كما بادروا إلى حفظ القرآن والسّنة ، ودرس التَّفسير والحديث ، ومعرفة أصول الدّين والفقه ، بل جعلوا اللّسان العربيِّ بوابة إلى هذه العلوم ، لا يولج إليها إلاّ به ، بل نسى كثير منهم أنّ له لغة غير العربية وانصرف فكره إليها ، حتى إنَّ بعضهم ما كان يطيب له أن يذكر لغته الأولى وقد أكرمه الله باللّسان العربيِّ ، فضلاً عن أن يقارن تلك اللّغة بلسانه الجديد ، وفرغت فئات المسلمين من غير العرب ، من الموالى لخدمة اللّسان العربي في مستوياته المختلفة : الصّوتي ، والصّرفي ، والتّركيبي والدّلالي: لم يقتصر أمره على ما ورد به استعمال القرآن أو السّنة ، بل جاوزه إلى جمع اللّغة ، وإحصاء شاردها ونادرها، وحصر غريبها وشاذها في جهد لم يتحقق للغة من اللّغات ، وعمل لم يحظ به لسان من الألسنة ، حتى رأينا من مصنفات العربية الشيء العجاب ، ألفه أو اكتتبه قوم ليسوا من أهلها نسباً ، ولكنهم منهم ولاءً وحباً.

وقد عني السّلف بالعربية ، وأقبلوا على خدمتها على نحو شامل ، وأيقنوا أنَّ دراستها والتَّأليف فيها ضرب من ضروب العبادة ، يتقربون به إلى الله [1] .

([1]) أ . د . إبراهيم أبو عبادة . لغة القرآن – ، ص١٦

وكان العلم باللّغة شرطاً للإمامة في علوم الدّين ، وصفة على غاية من الأهمية ، للائمة المجتهدين ، وكان الإمام الشافعيُّ خير مثال لذلك ، فقد كان له محل من اللّغة شهد به أهلها [١] ، حتى عدوا قوله حجة فيها وجعلوه كبطن من بطون العرب[٢] . قال ثعلب : يأخذون على الشّافعيِّ ، وهو من بيت اللّغة ، يجب أن يؤخذ عنه [٣] وقد قرأ عليه الأصمعي ، واستفاد منه مع كبر سنه ، وتقدمه في العلم والأدب [٤] وأثنى عليه أهل اللّغة الأوائل كابن قتيبة ت (٢٧٦)هـ[٥] وأبي القاسم الخوافي ت ٤٥٠هـ وأبي بكر بن دريد [٦] (ت ٣٢١هـ) وأبي منصور الأزهري ت (٣٧٠) بقوله : " ما لقيت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشَّافعيِّ (أنار الله برهانه، ولقاه رضوانه) أثقبهم بصيرة ، وأبرعهم بياناً، وأغزرهم علماً، وأفصحهم لساناً، وأجزلهم ألفاظا، وأوسعهم خاطراً . فسمعت مبسوط كتبه، وأمهات أصوله من بعض مشايخنا، وأقبلت على دراستها دهراً، إذ كانت ألفاظه عربية محضة، ومن عجمة المولدين مصونة [٧] .

([1]) أبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي – كتاب الرد على الانتقاد على الشافعي في اللغة –تحقيق عبد الكريم بكار ط١ – دار البخاري – بريدة – ص٣٢ .

([2]) المصدر نفسه ، ص٢٩ .

([3]) المصدر نفسه ، ص٢٩ .

([4]) المصدر نفسه ، ص٣٠

([5]) المصدر نفسه ، ص٣٠

([6]) المصدر نفسه ، ص٢٩

([7]) الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد ت(٣٧٠) الزاهر في ألفاظ غريب الشافعي ط١ سنة١٣٩٩-١٩٧٩م / وزارة الأوقاف الكويت ص(٣٣-٣٤) ، البيهقي:٣٢.

وقد جرت الأمة على تفضيل المقدمين في علم العربية في طلب القراءة والسُّنة ، وعلوم الشّريعة . قال أبو حاتم : " من أراد السُّنة والأمر العتيق في الدّين وقراءة القرآن ، فليكن ميله إلى الحرمين وأهل البصرة فإنَّهم أصحاب اقتصاد في القراءة ، وعلم بها وبعللها ، ومذاهبها ، ومجاري كلام العرب ومخارجها ، وكان منهم علماء النّاس بالعربية وكلام العرب ، وإنَّ منهم أبو الأسود الدؤلي ، وأبو الحارث ابنه ، ويحي بن يعمر العدواني ، وعبد الله بن أبي إسحاق ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد ، وأبو زيد ، وسيبويه ، والأخفش ، فهؤلاء الأئمة في هذا الشّأن ، ثم بنى على ذلك من جاء بعدهم من علماء اللّغة ، وتفتقت لهم الفطن ، وصرف إليه كثير من النّاس همهم ، حتى جعلوا له ديواناً يفزع إليه ، ويعتمد عليه ، وجعلوه للغة العرب معياراً ، فإذا وجدوا اللّحن في كلامهم وزنوه به فقوموه ؛ لأنَّ اللّحن يزيل الحرف عن معناه ، ويحيد به عن سننه ، وليس هذا لسائر الأمم ، وهو علم جسيم له خطر عظيم . [1]

والحاجة إلى علوم العربية في علوم الدّين كانت هي الدّافع لحفظ لغة العرب ، وشعرها وكلامها وأمثالها وأنسابها وسائر علومها .

قال أبو حاتم : (ولولا ما بالنّاس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشّعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ ، والصّحابة والتّابعين والأئمة الماضين، لبطل الشّعر ، وانقرض ذكر الشّعراء ولعض الدهر على آثارهم،

([1]) أبو حاتم – الزينة، ص (٨٦-٨٧).

ونسي النّاس أيامهم،ولكن الحاجة بالمسلمين ماسة إلى تعلم اللّغة العربية ومعاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم والحديث والأحكام والنسّب إذا كان الإسلام قد ظهر بحمد الله– في جميع أقطار الأرض وأكثر أهل الإسلام من الأمم هم عجم، وقد دعتهم الضّرورة إلى تعلم لغة العرب، إذ كانت الأحكام والسنن مبنية بلسان العرب.[1]

ولم تكن هذه الحاجة ظاهرة في عهد النّبوة وصدر الإسلام ، لاستغنائهم بسلائقهم وما يسمعونه من كلام العرب ، إذ كان الكلام مدركاً مفهوماً ، وسنن العرب في كلامها ظاهرة معلومة " قال أبو عبيدة : " إنّما نزل القرآن بلسان عربيّ مبين وتصديق ذلك في آية من القرآن ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[2] وفى آية أخرى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾[3] قال : ولم يحتج السّلف ولا الذين أدركوا وحيه أن يسألوا النّبي ﷺ عن معانيه لأنّهم كانوا عرب الألسن ، فاستفتوا بعلمهم عن معانيه ، عما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتّخليص ، قال الزّهري : إنّما أخطأ النّاس في كثير من تأويل القرآن لجهلهم بلغة القرآن. قال أبو عبيدة : سمعت الأصمعي يقول : " سمعت الخليل بن أحمد يقول : سمعت أبا أيوب السختياني

([1]) أبو حاتم – الزينة، ص ١٣٣ .

([2]) سورة الشعراء الآية (١٩٥)

([3]) سورة إبراهيم .الآية (٤) .

يقول : عامة من تزندق بالعراق لقلة علمهم بالعربية[١].

وقد قام علماء العربية بواجبهم نحو الدّين والقرآن فجمعوا ما الحاجة داعية إلى جمعه ، ودونوا ما علوم الشّريعة مفتقرة إليه ونظموه بطرق تيسر الوصول إليه ، قال أبو حاتم : (ورأينا العلماء باللّغة العربية قد كفُّوا النّاس مؤنة هذا الشّأن وأحكموه إحكاماً بيناً لما دونوه من أشعار الشّعراء والقوه من المصنفات ووصفوه من الصّفات في كل ما قدروا عليه ، مما يحتاج النّاس إلى استدراكه ، حتى لعلّه لم تفهم كلمة غريبة ، ولا حرف نادر إلاّ وقد ربطوه بأوثق رباط ، وعقلوه بأحكم عقال ، ورسموا في ذلك رسوماً ، وعولوا في ذلك على الشّعر والاحتجاج به ، وهذا للغة العرب خصوصاً ليس لسائر لغات الأمم ، وذلك كلّه لشدة حاجة النّاس إلى معرفة لغة العرب ؛ ليصلوا به إلى ما ذكرنا من معاني القرآن والألفاظ الغريبة فيه ، وفى أحاديث رسول الله ﷺ والصّحابة والتّابعين والأئمة الماضين ، وما يجئ في الشَّريعة من الأسامي في أصول الفرائض والسُّنن ، مما الجهل به نقص ظاهر على المرء المسلم وشين فاضح على كل ذي دين ومروءة . [٢]

وأمّا عامة المسلمين وطلاب القرآن وعلم الشّريعة خاصة فقد أقبلوا على العربية يتلقونها ويتعلمون ما فيها من سنن الكلام وطرائقه وألفاظه ومعانيه ، ويتذوقون وجوه البلاغة فيه والبيان ، امتثالاً لأمر من تجب طاعته ورغبته في التَّفقه في

([1]) أبو حاتم – الزينة ٨٦-٨٧ .

([2]) أبو حاتم – الزينة ، ص/١٣٤.

الدّين الذي لا يتم إلا بمعرفة اللّغة ، قال أبو حاتم : " وقد حث النّبي ﷺ أصحابه على تعلم اللّغة والإعراب ، روى أبو عبيدة بإسناد له عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ:(أعربوا القرآن والتَمِسوا غرائبه) [١] . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : أعربوا القرآن فإنَّه عربيٌّ ، وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه " تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه "[٢] وعن يحي بن عتيق ، قال : سألت الحسن ، فقلت الرجل يتعلم العربية يلتمس بها المنطق، ويقيم بها قراءته، فقال الحسن : فتعلمها فإنَّ الرّجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك فيها[٣].

(1) المصدر نفسه ، ص ١٣٤.

المبحث الثالث

عناية السّلف باللّغة والأدب خدمة للقرآن الكريم

المطلب الأول: عناية المسلمين بالبلاغة خدمة للقرآن الكريم:

علم البلاغة غصن باسق من روضة علوم العربية، وقد لقي هذا العلم من عناية السّلف وجهودهم ما جعله علماً قائماً برأسه ؛ ليخدم بيان الوحي المعجز، وتفوقه على الأساليب البيانية الأخرى.

ويشير واقع العرب في أوائل عصر نزول القرآن الكريم إلى أنّ السّليقة التي نشأوا عليها في التّذوق الفطري الأصيل وفرت عليهم تحليل مقومات روعة الكتاب العزيز، ثم أنَّهم لم تكن لديهم الوسائل التي تكفي بلوغ هذا التّحليل، على نحو ما تيسر للأجيال التَّالية[1].

ومع مرور الأيام برزت عوامل جديدة أدت إلى إضعاف أثر السّليقة في التَّعامل مع النّصوص الأدبية، فقد اختلط العرب الفصحاء بغيرهم، في بلاغة القرآن وإعجازه، مما جعل الكثيرين لا يكتفون بهذا التَّفوق الذي تحسه نفوسهم إزاء البيان القرآني، فمضوا يحاولون استنباط ما يستطيعون استنباطه من وجوه البلاغة فيه، وأصبحت دراستهم تقوم على الدَّليل العقلي والحجة ، وتسويغ مواطن الجمال التَّعبيري[2]. ويعدُّ القرآن هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشُّروع في الدِّراسات

([1]). د. حمادي صمود ، التفكير البلاغي عند العرب، تونس، ١٩٨١م، ص٣

([2]) الموجز في تاريخ البلاغة، ص٣٣

البلاغية بمختلف اتجاهاتها ، وكان هذا العامل أهمَّ البواعث في إثارة الهمم للبحث الجاد عن ترتيب وجوه الكلام ، والتَّمييز بين الأساليب ومعرفة الجوانب الجمالية في نسيج تركيب الجملة العربية[١]. ويجمع العلماء على أنَّه بفضل الكتاب العزيز نشأت علوم البلاغة التي أمدَّها النَّص القرآني بفيض من الأمثلة البديعة من محاسن الكلام وبديع النّظم[٢]..

والواقع أنَّ القرآن الكريم أثار منذ اللّحظات الأولى لنزوله حركة فكريّة عند متلقيه، مما جعلهم يلتفتون إلى ما جاء به من أساليب التَّعبير والبيان، وينقبون عن كنوزها ويوازنون بين صنوف الكلام المختلفة[٣]. يقول الدّكتور حمادي صمود: "غدا القرآن القطب الذي تدور حوله مختلف الجهود الفكرية والعقائدية للمسلمين".

ولو تساءلنا عن أسباب نشأة علوم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع، لتبين لنا أنَّها نشأت للدفاع عن القرآن، والرَّدُّ على الذين أنكروا إعجازه. وقد عرف العرب بسليقتهم اللّغوية أنَّ عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن نابع منه، بما يتميز به من خصائص أسلوبية وبيانية، ولكن مع التّأثر الجارف بالفلسفات الوافدة ذهب بعض المسلمين إلى ما عرف بنظرية الصَّرفة [٤]، التي تأثرت بما يقوله الهنود عن كتابهم المقدس (الفيدا)، إذ اعتقد البراهمة أنَّهم يعجزون عن الإتيان بمثله ؛ لأنَّ

---

(1) أنظر التفكير البلاغي عند العرب، ٣٦، البيان العربي للدكتور بدوي طبانة، ص٤٣.

(2) د. علي جميل أثر القرآن الكريم على اللغة العربية، ١٣٥

(3) أثر القرآن الكريم في تطور النقد الأدبي ، ٢٩

(4) د. مصطفى مسلم، دار مسلم إعجاز القرآن، ، الرياض، ١٤١٦هـ، ص٥٩

براهما صرفهم عن ذلك ، وفي مقدور الخاصة محاكاته ، ولكنَّهم ممنوعون احتراماً . وذهب النَّظام المعتزلي هذا المذهب، فكان يعتقد أنّ القرآن ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمنع من الإتيان بمثله ، فبلاغته لا تزيد عن بلاغة سائر النَّاس ، وهو من جنس كلام البشر. ومثل هذا الرَّأي دفع علماء المسلمين إلى الخوض في مسائل البلاغة التي تدرس حقائق النَّص القرآنيِّ، مما سيكون له أثر كبير في المباحث البلاغيَّة، فقد أثمرت أهم نظرية في تراثنا البلاغيِّ وهي نظريَّة النَّظم[١]. ومن هنا كان الرَّد على النَّظام ونظريته في الصَّرفة باعثاً مهماً ومنطلقاً لعلماء البلاغة أن يثبتوا تفوق الأسلوب القرآنيِّ على الأساليب البشرية وتميزه بصنوف البيان والبديع ، وهذا الدّافع جعلهم يبثون بذور البلاغة وفروعها المختلفة، مما كان أساساً لاكتمال صورتها في مصنفات القرون التَّالية.

وإذا كان الدّافع الاهتمام ببيان القرآن في أول الأمر، وهو الدّفاع عن الكتاب العزيز أمام نزعات الشّك وردِّ المطاعن، فإنَّ دراسات جادة شرعت في بناء منظومة واسعة، غرضها شرح أوجه إعجاز القرآن ودراسة أسلوبه. وهذه الدّراسات زودت مسيرة علم البلاغة بفيض من الأصول والأمثلة التي اعتمدتها مصنفات علوم البلاغة فيما بعد القرون الأولى[٢].

وكان اختلاف درجات النّظر في مواطن إعجازه مادة ثرّة، رفدت هذه العلوم

---

(1) التفكير البلاغي عند العرب، ٣٨

(2) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ٢٠٨

بروافد تأصيليَّة في البحث البلاغي والنَّقد الأدبي[١]، وبذلك يتبين لنا أنَّ أهم جانب ساعد على ظهور التَّفكير البلاغي هو الجانب المتصل بإعجاز القرآن، كما تبين لنا أنَّ اتساع الدِّراسات البلاغية وازدهارها إنّما كان لخدمة القرآن الكريم. وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أوائل من ألف فيها وكان غرضه توضيح الأساليب القرآنية.

ويذكر ياقوت في "معجم الأدباء"[٢] رواية عنه يقول فيها: "قال أبو عبيدة: أرسل إليّ الفضل بن الربيع والي البصرة في الخروج إليه سنة ثمان وثمانين ومائة، فقدمت إلى بغداد، واستأذنت عليه، فأذن لي فدخلت عليه... ثم دخل رجل له هيئة فأجلسه إلى جانبي وقال له: هذا أبو عبيدة علّامة أهل البصرة، أقدمناه لنستفيد من علمه، وقال لي: إنِّي كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها؟ قلت:هات، وقال: قال الله عز وجل ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[٣]، وإنّما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف، فقلت: إنّما كلّم الله تعالى العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعيّ ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ

وهم لم يروا الغول قط، ولكنَّهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السّائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن

---

(1) الموجز في تاريخ البلاغة، ٤٧

(2) ياقوت الحموي معجم الأدباء، ، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ١٨٥

(3) سورة الصافات، ٦٥

الكريم في مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة ألفت كتابي الذي أسميته "المجاز".

ولم تقتصر علاقة القرآن بمنهج البحث البلاغيِّ على الدّفاع عنه والتِّماس وجه إعجازه، بل أنَّ ثمة علاقة أخرى، وهي الضّرورة التي يحسها المسلم من جهة فهم معانيه[١]، ولا يتم هذا الفهم إلا بالإحاطة بأساليبه، ما يمكن أن ينطوي وراء تعبيراته من المعاني والمقاصد، على قدر طاقة المشتغلين فيه.

ومن هنا جال علماء البيان بضروب الأسلوب القرآنيِّ، وكان هذا من الحوافز التي وجهت أنظارهم إلى الفنون المختلفة للتعبير الفني في الشّعر والنثر، فوضعوا مصنفات كثيرة في هذه الحقول[٢]، وكانت هذه المصنفات صدىً لبيان خصائص النّظم القرآنيِّ.

وكان من جملة أغراض البحث البلاغي عندهم إثبات أنَّ ما عرف في أدب العرب من فنون جمالية عالية في التّعبير، وضع مثله في القرآن على صورة أجمل وآنق، وقد فتحت المصنفات التي تركوها باب البحث البلاغي على مصراعيه ووصلت بالذوق البياني إلى كثير من الأصول التي تأسست عليها علوم المعاني والبيان والبديع[٣]. يقول الدكتور بدوي طبانة[٤] "من النادر أن نجد أثراً من الآثار التي عرضت للبيان

---

(1) د. شوقي ضيف، البيان العربي، ٢٥

(2) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ٢٠٨

(3) د. شوقي ضيف، البيان العربي، ص٤٤

(4) المصدر نفسه، ص/٤٤.

العربي خلاف الإشارة إلى القرآن ونظمه، وهذا يؤكد بعد أثر الدِّراسات القرآنية في نمو الدّراسات البيانية وتنوعها، وعدم انقطاع هذا التَّأثر في سائر العصور".

وعندما ازدهر التَّصنيف في علوم البلاغة كانت خدمة القرآن الكريم ماثلة أمام العلماء الذين كان يعدون جهودهم منصبة في هذا المجال ، حتى إنّنا لا نكاد نجد كتاباً في البلاغة مقصوراً على مباحثها النَّظرية وبعيداً عن خدمة القرآن [1].

وتُرجع معظم كتب البلاغة سبب تأليفها إلى إطْلاع النَّاس على مواطن أسرار البيان في القرآن ؛ فالرُّماني مثلاً يحصر البلاغة في عشرة أقسام ، ثم يمضي لتفسير كل قسم في ضوء الآيات القرآنيّة وبيان أسرار الجمال فيها، وذلك في كتابه النُّكت[2]، الذي يعد حلقة مهمة من حلقات التَّأليف في البلاغة العربية.

وقد بلغ التّصنيف في علوم البلاغة غاية بعيدة من النَّضج والإحكام على يد الإمام عبد القاهر الجرجاني، الذي وضع كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" وكان لهما منزلة عالية من نضج التَّفكير البلاغي، ويتضح فيهما توجيه علوم البلاغة توجيهاً خالصاً لخدمة القرآن الكريم.

وهذا هو صاحب (الصّناعتين) يقول في مقدمة كتابه: "قد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما

([1]) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ٢٢٥

([2])الرماني ، النكت في إعجاز القرآن، ص٧٦

خصه الله به من حسن التّأليف[١] وبراعة التّركيب، بل أنَّ العسكري في كتابه يرى أنَّ أحق العلوم بالتَّعلم وأولاها بالتَّحفظ بعد المعرفة بالله علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة.

ويذكر القزويني في مقدمة كتابه "التَّلخيص" أنَّ موضوع إعجاز القرآن كان السبب في وضع الكتاب، ويشير في مقدمته[٢] إلى أنَّ علم البلاغة وما يتبعه من أجلّ العلوم قدراً، وأدقها سراً، إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها".

ومن هنا فإنَّ الدّارسين المحدثين لمحوا علاقة علم البلاغة بكتاب الله ؛ يقول الدّكتور مازن المبارك[٣] "وهكذا نشأت البلاغة وترعرعت تحت راية القرآن والبحث في إعجازه، وهذا البحث هو الذي وصل بها إلى أن تصبح علماً مستقلاً يخص بالتَّأليف، بل لقد ظلت البلاغة بعد نضجها واستغلالها أيضاً عالقة بفكرة إعجاز القرآن والدّفاع عنها".

المطلب الثّاني: عناية المسلمين بالشّعر خدمة للقرآن الكريم:

للشّعر منزلة كبيرة في علوم العربية؛ لأنَّه هيأ لها مادة واسعة في سبيل تأصيل مفردات اللّغة، وبيان نسيج تركيبها وأوجه استعمالاتها، وقد عنى به علماء العربية

---

(1) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص ٧

(2) التلخيص، ٢٢

(3) الموجز في تاريخ البلاغة، ٤٨

خدمةً للقرآن الكريم؛ لأنَّه ديوان العرب، وكان له قبل الإسلام منزلة سامية لدى القبائل العربية، كما كان للشُّعراء مرتبة رفيعة، بيد أنَّ القرآن لم يستطع الشّعر مغالبته، وصارت الألسنة تلهج بتلاوة النّص القرآني الفريد. ومع أن النّاس كانوا يجمعون على تفوق بيانه لم يهجروا الشّعر، بل عدوه عوناً لهم في فهم معضلات القرآن والوصول إلى معانيه[١]، ومن هنا صار الشّعر وسيلة ذات شأن، أصبحت تساهم مساهمة فاعلة في تفسير القرآن، وخدمة جوانبه المتعددة.

والواقع أنَّ العناية بلغة الشِّعر والاستشهاد بها على غريب القرآن ومفرداته وبيانه، ليست مسألة طارئة على الحياة العلمية في عصر التّابعين، وإنّما كانت هذه العناية مألوفة عند الصحابة رضوان الله عليهم، فقد أورد الزّمخشري[٢] رواية عن الخليفة الرَّاشد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين سأل وهو على المنبر عن قوله تعالى ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾[٣]، فقام إليه شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التَّخوف التنقص، فسأله عمر: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال الشاعر:

تخوف الرَّحْلُ منا تامكاً قرداً كما تخوف عود النّبعة السَّفنِ[٤]

فقال عمر – رضي الله عنه – أيها النّاس، عليكم بديوانكم لا يضل، فقالوا: وما

---

(1) أثر القرآن في تطور النقد العربي، ١٩٤

(2) الزمخشري الكشاف، ، مصر، مطبعة الحلبي، ١٣٨٥-١٩٦٦م جدة ، ص٤١١ .

(3) سورة النحل، الآية ٤٧

(4) التامك: السنام، والقرد: الذي تراكم لحمه عليه من السمن، والتبعة:ضرب من الشجر الصلب، والسفن: المبرد

ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسير كتابكم.

وقام حبر الأمة ابن عباس – رضي الله عنهما – في ميدان الاستشهاد بالشّعر على غريب القرآن بجهد متميز، وكان له مجالس واسعة تعقد لهذا الغرض، ويفد إليه النَّاس من كل حدب وصوب، وكان يقول[١]: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتَّمسوه في الشّعر، فإنّ الشّعر ديوان العرب".

وقال عمرو بن دينار[٢]: "ما رأيت مجلساً قط أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس للحلال والحرام وتفسير القرآن والعربية والشّعر". وتحتفظ مصنفات علوم القرآن بحوار علمي مطول جرى بين أحد زعماء الخوارج وهو نافع بن الأزرق وابن عباس، فقد قال نافع لصاحبه نجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجتريء على تفسير القرآن والفتيا بما لا علم له به. فقاما إليه فقالاً: نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله عز وجل وتفسره لنا، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب، فإنّ الله عز وجل إنِّما أنزل القرآن بلسان عربيٍّ مبين، قال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما تجدا علمه عندي حاضراً إن شاء الله. فقالا: يا ابن عباس اخبرنا عن قول الله عز وجل:﴿ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[٣]، قال: عزين: حلق الزمان. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص يقول:

---

(1) ابن الجوزي طبقات القرآن ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٤٠٢هـ، ص٤٢٦

(2) ابن الجوزي طبقات القرآن، ، ٤٢٦/١

(3) سورة المعارج، الآية ٣٧

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وقال نافع: يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1]. قال الوسيلة: الحاجة، قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة العبسي يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحّلي وتخضبي

وقال كذلك: يا ابن عباس، اخبرني عن قول الله عز وجل:﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴾[2] فقال: وما جمع، ألم تسمع: (مستوسقات لو يجدن سائقاً...) وسأله عن قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴾[3] فقال ابن عباس: السّري (الجدول)، فسأله عن الشّاهد، فأنشده:

سلما ترى الدّامج منه أزورا إذ يمج في السرّي هرهرا

وسأله عن قوله تعالى: ﴿ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾[4] قال ابن عباس: الزّنيم هو الدعي الملصق، أما سمعت قول حسان:

زنيم تداعاه الرّجال زيادة كما زيد في عرض الأديم الأكارع

([1]) سورة المائدة، الآية ٣٥

([2]) سورة الانشقاق، الآية ١٧

([3]) سورة مريم، الآية ٢٤

([4]) سورة القلم، الآية ١٣

وسأله عن قول الله تعالى: ﴿ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ [١] فأجابه بأن السَّاق هو الشِّدة، فسأله عن الشَّاهد، فأنشده قول الشّاعر:

أخو الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وسأله أيضاً عن قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾ [٢] فأجابه بأن الساهرة: هي الأرض، فسأله عن الشَّاهد، فأنشده لأمية ابن أبي الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر ...

ويمضي نافع يسأل وابن عباس يفسر ويستشهد على تفسيره ببيت من الشعر في مائتين وخمسين موضعاً[٣]، وقد حقق هذه المسائل الدّكتور إبراهيم السّامرائي بعنوان "سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس". يقول الدّكتور رمضان عبد التواب[٤]. وبذلك يمكننا أن نعدَّ تفسير ابن عباس للقرآن على هذا النّحو نواة للمعاجم العربية، فقد بدأت الدّراسة في هذا الميدان من ميادين اللُّغة بالبحث عن معاني الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم.

وكان ابن عباس يقول الشّعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتَّمسنا معرفة ذلك منه[٥]، وبذلك تكون

---

(1) سورة القيامة، الآية ٢٩

(2) سورة النازعات، الآية ١١

(3) إيضاح الوقف والابتداء، ٧٦/١-٩٨. السيوطي الإتقان في علوم القرآن، ، بيروت، دار الفكر، ١٢١/١

(4) د. رمضان عبد التواب فصول في فقه اللغة، ، الطبعة الثانية، مصر، مكتبة الخانجي، ١١٠

(5) السيوطي ، الإتقان، ١٢١/١

دراسة القرآن الكريم والرَّغبة في تفسير غريبه وفهم مقاصده سبباً رئيساً من أسباب العناية بالشِّعر العربيِّ، ومع مرور الأيام تزايدت الحاجة إلى هذا الاتجاه، وتابع هذا المنحنى علماء العربية والتفسير، ولا غرابة أن تحفل كتب إعراب القرآن وتفسيره بمادة غزيرة من الشِّعر العربيِّ الفصيح، فقد تجاوزت الشَّواهد الشّعرية في كلٍّ من البحر المحيط وجامع القرطبي والدّر المصون مثلاً أكثر من خمسة آلاف بيت.

ونجم عن العناية برواية الشّعر الكشف عن أسرار الأسلوب القرآنيِّ وإعجازه، وتفوقه على أعلى مراتب الشّعر البليغ الذي كانت العرب تحتفل به أيما احتفال، وهي الخبيرة بمواقع النّظم الرّفيع، وللجرجانيِّ في كتابيه "الدلائل" و"الأسرار"، والباقلانيِّ في "إعجاز القرآن" جولات واسعة في هذا الحقل، حيث وازن هؤلاء الأئمة بين أسلوبي القرآن والشّعر، وعرضوا أمثلة راقية؛ وذلك لأنَّ الشِّعر ديوان العرب نظم فيه أصحابه عصارة بيانهم وصفوة بلاغتهم، ويرى عبد القاهر[1] أنَّه لما كان الشّعر ديوان العرب كان محالاً أن يعرف القرآن معجزاً من جهة خصائصه إلا من عرف الشّعر. ومن هنا فإنّ عناية علماء العربية بالشّعر عناية هادفة إلى تحقيق مقاصد كثيرة في مجال علوم العربية المتعددة.

وهذه الإفادة الرّحبة من المادة الشّعرية في سبيل الإحاطة بلغة القرآن مهدت الطَّريق لكثير من اللّغويين للقيام برحلات علمية إلى البوادي لالتقاطها من أفواه

(1) الإتقان، ١٢١/١

الأعراب[١]، ولولا هذا النشّاط المبذول في جمع الشّعر والعناية به لخدمة القرآن لاندثر الشّعر الجاهلي.

وكلما تباعد النّاس عن عصر نزول القرآن برزت الحاجة إلى معرفة غريب القرآن، فكان الشّعر من أهم الوسائل لفهم هذا الغريب والإجابة عن استفسارات النّاس المتجددة[٢]. وبذلك مدّ الشّعر العربيّ حركة التَّفسير القرآنيّة التي بدأت تنمو وتزدهر مع مرور الأيام. كما مد هذا الشّعر معاجم اللّغة وكتب النّحو والصّرف والبلاغة بشواهد غزيرة تساهم في تأصيل علومها. وقد كان للعلماء الثِّقات في هذه الخطوات دور كبير في سدِّ أبواب الانتحال والوضع؛ ليكون الاستشهاد مبنياً على أسس صحيحة[٣].

وكلما ابتعد النّاس من موارد الفصاحة وتقدمت بهم الأيام، صعب عليهم فهم الشّعر والتَّعامل معه لكثرة غريبه المبثوث فيه، فاستلزم الأمر شرحه، ولا سيّما الجاهليّ منه الذي يكثر فيه الحوشيّ.

ويجد الباحث في المكتبة العربية الكثير من هذه الشّروح التي يتخللها الاستشهاد بآيات القرآن الكريم، ومن ذلك كتب الأمالي والنوادر وغيرها، ومن هنا صار فن

---

(1) عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ٧

(2) الزمخشري المفصل في تاريخ النحو العربي، في علم العربية، محمود بن عمر، ت(٥٣٨)، ط٢، دار الجيل، بيروت، ص٣٢ .

(3) أثر الشعر في تطور النقد العربي، ١٩٤

الشّعر قائماً برأسه، وفرعاً من فروع المعرفة اللّغوية والبيانية التي تخدم القرآن[١].

وليس غريباً أن يحتل الشّعر مكانة عالية في مجال البحوث القرآنيّة المتعددة التي تعنى بالتأصيل، وبذلك خالف الشّعر العربيّ آداب اللّغات الحية التي لا نكاد نجد فيها مثل هذا التّواصل اللّغوي عبر هذه القرون المتطاولة، ولكن بفضل القرآن بقي الشّعر العربي حياً طوال فترة سالفة[٢].

المبحث الرابع
أعداء الإسلام والحرب على القرآن واللّغة

يحاول غير المسلمين بوعي، ومرضى القلوب بغير وعي أن يعزلوا المسلمين عن قرآنهم ولغته، حتى عاب بعضهم على الرَّافعي أسلوبه ، واقترح عليه ترك الجملة القرآنيّة ، ويعنون بها اللّغة العالية، والأسلوب الرَّاقي ، الذي يسمو بصاحبه إلى لغة القرآن ، وأسلوبه ومنطق رسول الله ﷺ وفصحاء العرب وأدباء العربيَّة فهذا القرآن كما هو نور لعقولنا ، وحياة لقلوبنا هو حلاوة على ألسنتنا وشارة كمال في منطقنا وبياننا.

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

يختالوننا ليصرفونا عن لغة القرآن وبيانه ، كما خاتلوننا ليصرفونا عن العمل به وبتلاوته حتى صار التَّجديد في اللّغة والبيان عند كثير هو التَّخلي عن لغة القرآن

---

(1) التفكير البياني عند العرب، ٣٤

(2) أثر القرآن الكريم على اللغة العربية، د. علي جميل، ١٣

وبيانه ، والانسياق وراء الرّطانة الأعجمية ، واللّكنة المعوجة ، والدّعوة إلى أن تسوّد الصَّفحات بأحرف عربيَّة ، ولغة غير عربيَّة ، وإنْ تحلت بزيها ورسمت برسمها [1] . فالقرآن هو سر هذه اللّغة وحياتها ، قال الرَّافعي: (إنَّ هذه العربية بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها ، فلا تهرم ولا تموت لأنَّها أعدت من الأزل فلكاً دائراً للنيرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ . ومن ثمّ كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء ، كأنَّها أَخْذَةُ السِّحر ، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع)[2] وكل حرب يديرها أعداؤنا وعملاؤهم للفصاحة والبلاغة والبيان العالي لا يقصد بها حرب اللّسان والبيان ، وإنَّما هي حرب لأصلهما من قرآن وحديث ، وكلام سلف [3].

هناك فئة تحاول فصل الأمة عن دينها بحيلة بت صلة اللُّغة العربيَّة بالقرآن والحديث ، وإبعاد علوم العربية عن الصبغة الدِّينية ويتظاهرون مع ذلك بحب العربيَّة والحرص على تعلمها ، لكن بشرط أن تفصل عن العلوم الشَّرعيَّة ، وأن لا يكون للدِّين وتعليماته هيمنة عليها ، فقد ظهرت دعوات إلى إقامة أقسام للعربيَّة على هذا الأساس . تربى أبناءها على غير لغة القرآن ، وإن كتبت بالحرف العربيِّ ، ويدرسون غير لغة القرآن ، وإن سموها بعلوم عربيَّة .

([1]) تحت راية القرآن الكريم – مصطفى صادق الرَّافعي ص٢ .

([2])المصدر نفسه – ص٣ .

([3]) انظر كلمة الأمير شكيب أرسلان ، ضمن كتاب تحت راية القرآن ص٣٤-٤٢ .

إن هناك حرباً يستهدف بها القرآن ؛ لكنَّها لا تستطيع أن تخلع قناعها وتهجم على ما تريد مباشرة ، لأنَّها سوف تردُّ وتصدُّ ، فيصرفون حربهم إلى لغة القرآن ، فيحاربون كل لسان يحاكى بيان القرآن في جزالته ، وفصاحته ، ويستبدلون بذلك كل أسلوب فج ، وتركيب ركيك وهم في ذلك لا يحاربون نمطاً من أنماط التعبير ولا يحاربون اللغة العربية نفسها ، ولكنَّهم يعلنون حرباً ضروساً على القرآن [1] ويزعم هؤلاء أنَّ البلاغة يمكن أن تكون بمعزل عن القرآن ، وأنَّ الفصاحة يمكن اكتسابها من غير القرآن ، وهذا ما لم يقل به أحد من قبل ، وليأتنا هؤلاء بواحد استطاع بمعزل عن القرآن وما كان على نمطه من الكلام جزالة وقوة ، وحلاوة وطلاوة أن يجعل من نفسه أديباً ذا بيان ولسان.

(1) تحت راية القرآن ص(٣٥) .

الخاتمـــــــة

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، نحمدك يا رب العالمين بجميع محامدك كلِّها على جميع نعمك كلها ما علمنا منها وما لم نعلم. والصَّلاة والسَّلام على خير الخلق أجمعين وحبيب رب العالمين سيدنا وحبيبنا محمد بن عبد الله نبي الهدى والرَّحمة المهداة وعلى آله وصحبه الطيبين الطَّاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإنَّني أذكر كل من يطالع هذا البحث بحديث المصطفى ﷺ (الدين النَّصيحة قلنا لمن يا رسول قال لله ، ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1]. ومن النَّصيحة لكتاب الله إصلاح ما يجده في البحث من خطأ لأنَّه يتعلق بكتاب الله المحفوظ من التبديل والتَّحريف وباللُّغة التي نزل بها القرآن.

وأذكر بقول العماد الأصفهاني: "إنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدَّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النَّقص على جملة البشر".[2]

وأقول إنَّ لكل بحث أهداف وقضايا توصله إلى نتائج وتوصيات، وقد وفق الله – الباحث – وهداه إلى نتائج وملاحظات وتوصيات توصل لها من خلال تحليل هذا البحث نجملها فيما يلي:

([1]) صحيح البخاري، ح١، باب الدين النصيحة، ص١٠٨. صحيح مسلم، ج١، باب بيان النصيحة، ص٢٤٠-٢٤١

([2]) العماد الأصفهاني، ت(٥٩٧هـ).

أولاً: النتائج:

١. من الصعوبة بمكان حفظ القرآن الكريم وفهمه دون إتقان اللغة العربية.
٢. نشأت علوم البلاغة للدفاع عن القرآن والرَّدّ على الذين أنكروا إعجازه.
٣. الشّعر العربيُّ من أهم الوسائل لفهم غريب القرآن والإجابة عن الاستفسارات المتجددة .
٤. بيان تلازم علوم القرآن وعلوم العربية وتآخيهما ، حتى أنَّه ليعسر فصل أحدهما عن الآخر في النَّشأة والتأليف والتَّاريخ والدوافع والمقاصد .
٥. حصول الملكة اللُّغوية يكون بكثرة الحفظ وجودتها تكون بجودة المحفوظ وليس هنالك محفوظ أجود من كلام الله عز وجل.
٦. عني السَّلف بالعربية وأقبلوا على خدمتها وأيقنوا أنَّ دراستها والتَّأليف فيها ضرب من ضروب العبادة يتقربون به إلى الله عز وجل .
٧. توصل ابن خلدون في المقدمة إلى أنَّ كلام العرب من الإسلاميين أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلين في منظومهم ومنثورهم ، وبين السبب في ذلك هو أنَّ من أدركوا الإسلام سمعوا الطَّبقة العالية من الكلام في القرآن الكريم والحديث واللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما.
٨. القرآن الكريم أثرى المفردات العربية بكلمات جديدة نقلها من معناها

اللُّغوي الأصل إلى معنى لغويٍّ إسلاميٍّ جديد.

٩. كل حرب يديرها أعداؤنا وعملاؤهم للفصاحة والبلاغة والبيان العالي لا يقصد بها حرب اللِّسان والبيان، إنَّما هي حرب لأصلهما من قرآن وحديث وكلام السَّلف

ثانياً: التَّوصيات :

١. ضرورة أن يكون مقرر القرآن الكريم المادة الدِّراسيَّة الأساسيَّة والرئيسة في جميع مراحل الدَّراسة بمختلف أنواع التَّعليم.

٢. حث المجتمعات الإسلامية على أن تكون مادة القرآن الكريم مطلباً رئيساً وإجباريا لطلاب الكليات والجامعات في جميع التخصصات لاسيما طلاب الأقسام العلميَّة لتخرج الطَّبيب والمهندس والتِّقني الرِّسالي.

٣. ضرورة الاهتمام الجيد بمعلم القرآن الكريم ليستطيع تدريس المقرر وفقاً للأسس التَّربوية السَّليمة.

٤. ضرورة إيفاد معلمين متخصصين في اللُّغة العربيَّة لغير الناطقين بها ومتخصصين في تدريس القرآن الكريم إلى دول العالم الإسلامي في فترة الإجازة المدرسيَّة لتعليم أبناء المجتمعات الإسلامية من غير الناطقين بالعربيَّة القرآن الكريم واللّغة العربيَّة .